تطبيق 03: نص شعريّ

نونية أبي البقاء الرّندي

أولا: التّعريف بأبي البقاء الرّندي:

أبو البقاء الرّندي هو صالح بن موسى بن أبي القاسم علي بن شريف الرندي الأندلسيّ، وُلد سنة 601هـ وتوفي 684هـ من أبناء مدينة رُندة بالأندلس، عاش في النّصف الثّاني من القرن السابع للهجرة، وعاصر الفتن والاضطرابات الّتي حدثت من الدّاخل والخارج في بلاد الأندلس، وشهد سقوط معظم القواعد الأندلسية في يد الإسبان، وحياته ليست مشهورة جدّا إلاّ أنّ هذه القصيدة هي الّتي شهرته وتناقلها النّاس وذُكرت في كتب الأدب، ويُقال عنه أنّه من حفظة الحديث والفقه، وكان بارعا في نظم الكلام ونثره، وأجاد في المدح والغزل والوصف والزّهد، إلاّ أنّ شهرته ترتبط بشهرة هذه القصيدة أو في رثاء الأندلس.

ثانيا: نونية أبي البقاء الرندي:

في هذه القصيدة (نونيته) رثى بها بلاد الأندلس، ولكنه لم ينظمها بعد خروج المسلمين من الأندلس، وإنّما قبل خروجهم منها بحوالي قرنين من الزّمان؛ أي كأنّه قد تنبأ بسقوط الأندلس، إذ بقى المسلمون على حالهم، وكانت حينما تنازل ابن الأحمر لنصارى الأندلس عن عدد كبير من ثغورها وهو ما ورد في أحداث 665هـ، إذ قيل أنّ جملة ما أعطاهم ابن الأحمر من بلاد المسلمين من مدن وحصون، وعندها قال أبو البقاء الرندي هذه القصيدة يرثي بها الأندلس ويستنصر المسلمين ويدعوهم إلى التكاتف من أجل استعادة الأندلس، يقول فيها:

لكلّ شَيْءٍ إِذَا مَـا تَمَّ نُقْصَـــان فَلَا يُغَرَّ بِطِيبِ العَـــيْشِ إِنْسَـــانُ
هِيَ الأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُـهَا دُوَل مَـنْ سَرَّهُ زَمَـنٌ سَـــاءتْهُ أَزْمَـــانُ
وهذهِ الدارُ لا تُبْقي على أحـدٍ ولا يدومُ على حـــالٍ لهـــا شـــانُ
يُمَزق الدهرُ حتمًا كلَّ سابـــغةٍ إذا نَبَـتْ مَشرَفِيـــات وخَرصـــانُ
ويَنتَضي كلَّ سيفٍ للفناءِ ولـــو كانَ ابنَ ذي يَزَنٍ والغِمدَ غِمـــدانُ
أينَ المُلوكُ ذوو التيجانِ من يَمَنٍ وأينَ مِنْهُمْ أَكَـــالِيلٌ وتِيـــجانُ
وأينَ مـــا شَادَهُ شَدَّادُ في إرمٍ وأين ما سَاسَه في الفـرس سـاسانُ
وأينَ مـا حازَهُ قَارُونُ من ذَهَبٍ وأين عـــادٌ وشـــدادٌ وقـــحطانُ
أتى على الكلِّ أمرٌ لا مَرَدَّ له حتى قضوا فكأنَّ القـــومَ مـــا كانوا
وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلكٍ ومنْ مَلكٍ كما حَكَى عَنْ خيالِ الطيفِ وَسْـنانُ
دارَ الزمانُ على دارا وقاتله وأمَّ كسـرى فمـــا آواهُ إيـــوانُ
كأنَّمَا الصَّعْبُ لَمَ يَسهُل لهُ سببُ يومًـــا وَلا مَلَكَ الدنيـــا ســـليمانُ
فجائعُ الدهرِ أنواعٌ منوعةٌ وللزمـــانِ مَـــسَرَّاتٌ وأحـــزانُ
وللحوادثِ سُلوانٌ يُسَهِّلُهَا وَمَا لِمَا حلَّ بـــالإسـلامِ سُـــلوانُ
دَهَى الجزيرةَ أمْرٌ لا عزاءَ لهُ هـوى لـــهُ أُحـــدٌ وانهدَّ ثَهـــلانُ
أصابَهَا العينُ في الإسلامِ فارتزأتْ حتّى خـــلتْ مـــنهُ أقـــطارٌ وبلدانُ

ثالثا. محاور القصيدة:

1.الشّكوى من الزّمان وتحولاته: يدور هذا المحور حول الحكمة وضرب الأمثال بالدّول البائدة والملوك الغابرة، فالمطلع قائم على الحكمة وكلاسيكي يقوم على المنطق والعقل ويقينه، وجاء به الشّاعر ليخفّف وقع المأساة على المتلقي ليعلم بأنّ سقوط المدن والثّغور الأندلسية في أيدي الأعداء إنّما هو محنة على المسلمين يجب أن يتعظوا ولا يكون هذا السقوط سقوطا نهائيا، وتدور حكمته حول قضية كمال الأشياء ونقصانها فيدلّل بأنّ سقوط الدّول في حدّ ذاته أمر طبيعي، وهو ما يُعرف بالحتمية التّاريخيّة في نشوء الدّول وزوالها الّتي ذكرها ابن خلدون في مقدّمته، فقال أن الدّول كالأفراد والكائنات الحيّة تمرّ في أدوار ومراحل مختلفة من نموّ وقوة وضعف وفناء، وعزّز الشّاعر هذه الحكمة

بذكر آيات القرآن الكريم وتوظيفها، ثم انطلق إلى ضرب الأمثال بالدّول السّابقة والملوك الغابرة فذكر لنا: سيف بن ذي يزن، وملوك حمير، والتتابعة في اليمن، وإرم ذات العماد، وساسان الفارسي، وقارون وكنوزه، ومملكة سليمان، فذكرها ليتأسّى الشّاعر بما حدث بالأقوام السّابقة وما سيحدث للأندلس إن بقيت على حالها.

2.الحديث عن المدن الّتي سقطت: بدأ يتحدّث في هذا المحور عن الأحداث التّاريخية وعن زوال الدول والملوك وتمثّلت له في المأساة الّتي حلّت بالأندلس، واختار جبلي أُحد وثهلان لتهويل هذه المأساة؛ بحيث إنّ سقوط المدن الجميلة في الأندلس أثرت بهما فاهدّ لثقل ما وقع عليهما من هذا الخبر، ويذكر محاسن هذه المدن، فقرطبة اشتهرت بعلومها وكثرة علمائها، وحمص بمنتزهاتها الّتي تطلّ على الوادي الكبير، ونراه يوازن بين أحوال المدن قبل السّقوط وبعده، ويتحدّث عن خروج الإسلام منها وحلول الكفر فيها، كتحول المساجد فيها إلى كنائس، وتحول صوت الأذان إلى نواقيس الأجراس، ثمّ يتصاعد تهويل المصيبة لتبكي المحاريب، وتشكو المنابر ويركّز الشّاعر هنا على المعالم الإسلامية لأنّه يريد أن يثير العاطفة العاطفة الدّينية في المسلمين جميعهم.

3.تنبيه المسلمين من غفلتهم: يدعو الأندلسيين إلى الاعتبار من سقوط المدن والممالك الأندلسية، وأن لا يتوهموا بالأمن والاستقرار، فالمصيبة حلّت في الأندلس وهي مصيبة تفوق كل المصائب، ونراه يذهب إلى أبعد من ذلك إذ يعزّز موعظته بالسخرية منهم، فهو يصف خيولهم بالعتيقة الضامرة فإنّها تشبيه بالعقبان وسيوفهم بالحدّة واللّمعان، ونراه يسخر بهم قائلا: هل سمعتم بما حلّ بالأندلس؟ ويريحهم من الإجابة فيجيبهم بأنّهم قد سمعوا ولكنّه يقدم النصح للمسلمين ويرشدهم باسم الأخوة الإسلامية والرّابطة الدّينية لنبذ الفرقة ونصرة إخوانهم في الأندلس.

4.وصف حال المسلمين في الأندلس: يعرض الشّاعر مشاهد مؤثّرة من مأساة الأندلس، فيصف حال أهل الأندلس عندما كانوا أعزّة فصاروا عبيدا يُباعون في أسواق الرّقيق يذرفون الدّموع، ويُنتزع الأطفال من أحضان أمهاتهم، يورد الشّاعر تلك الصّور الحزينة المؤلمة ليثير المشاعر الإنسانية والعاطفة الدّينية على وجه الخصوص فيهم، وتنتهي هذه القصيدة في آخر بيت بلحن شجي حزين فيقول:

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

لغة القصيدة:

1.النّداء: استخدم الشّاعر النّداء في عدّة مواطن: (يا غافلا وماشيا مرحا) والنّداء هنا موجّه إلى الغافلين، ويقول (يا أيّها الملك، ويا راكبين عتاق الخيل، وحاملين سيوف الهند) والنّداء موجه إلى المسلمين في بلاد المغرب، ويقول (يا من لذلة قوم، ويا رُبّ أم وطفل) وقصدَ التّحسر والتّوجع لِما أصاب المسلمين.

2.الاستفهام: استخدم الاستفهام في مواضع عدّة مثل حديثه عن الدول الّتي بادت والملوك الّذين ذهبوا في صور متلاحقة، ك (أين الملوك ذوو التّيجان، وأين ما شاده شدّاد؟ وأين ما حازه قارون؟) والإجابة واحدة: قضوا كلهم فكأنّ القوم ما كانوا، وهذا يأتي في سياق الحديث عن المدن الإسلامية الّتي سقطت في أيدي الإسبان، وكذلك (ما شأن مرسية؟ وأين شاطبة؟ وأين قرطبة؟) وهي أسئلة استنكارية أيضا.

3.الصور والأخيلة: يصور الرندي المأساة الّتي حلّت في الأندلس بعد وقوعها في أيدي الإسبان مستعملا تقنيتي العرض والموازنة، فتمثّلت التقنية الأولى (العرض) في عرض الصور المتلاحقة: صور القوم الّذين ذلّوا بعد أن كانوا أعزّة ثم أصبحوا عبيدا يسيرون حيارى تائهين إلى صورة أخذهم سبايا يذرفون الدّموع وصورة الأم الّتي ينتزع طفلها من بين يديها، أمّا التّقنية الثانية (الموازنة) فهي في حال المدن قبل السّقوط وبعده، فتمثّلت في خروج المسلمين منها وحلول الكفر محلهم.

لم يسرف الرندي في تشبيهاته واستعاراته خلافا لما عليه الحال عند كثير من الشّعراء الأندلسيين، إلاّ أنّها جاءت متآلفة ومنسجمة مع سائر أجزاء القصيدة.

4.المحسّنات البديعية: يعدّ الطّباق لونا مهما في قصيدة الرندي، تصرّف به ليُظهر به أحوال النّاس قبل السّقوط وبعده، ووجدنا طباقات متتالية (التمام والنقصان، سرّه وساءه، مسرّات وأحزان، الإسلام والكفر) وهذا الحشد وغيره من الطّباقات يصوّر الصّراع بين المسلمين وأعدائهم وتصوير إحساسه بالأسى وتقلّب الاحوال.

أمّا الجناس فاستخدم الرندي جناس الاشتقاق وهو جناس سهل لا يكلف صاحبه جهدا، وهو ليس بالكثير البارز في القصيدة، فهو يولده في أسماء الملوك الّذين أوردهم في سياق الأحداث التّاريخية مثل (شاد وشداد، وساس وساسان، ودار ودارة،).

أمّا الاقتباس فقد ألمّ الرندي ببعض الألفاظ والتّعبيرات القرآنية كقوله تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس)، وقوله تعالى (يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء).

العاطفة: عاطفة الحزن يخاطب فيها العقول، تفجّع للأحداث التّاريخية الّت عاشتها هذه المدن.

الموسيقى (داخلية وخارجية): الموسيقى الخارجية جاءت القصيدة على البحر البسيط (مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن) في الشطرين الأول والثاني، وهو من البحور المركبة الّتي تتيح مجالا للتّعبير عن الحزن والأسى، والقافية فقد قام رويّها على النون المضمومة المشبعة المسبوقة بحرف المد الألف، ممّا يتلاءم مع جوّ الحزن والألم، أمّا الموسيقى الدّاخلية تمثّلت في اختيار الألفاظ والأفكار الإنسانيّة والتّعبير عن حالة الأسى والحزن.